الباب الثاني

الدعوة إلى التوحيد

(طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يترك.

ويعملون بالسنة حين تطفأ).

حديث شريف

إذا كان الأرض الطيبة تنتج حاجة أهلها من الغذاء، ويمتد عطاء الله فيها إلى أبعد من حدودها – فكذلك الأمة العظيمة تنتج حاجاتها من العظماء مصلحين أو ولاة أو علماء. ولما أحوج الفساد المسلمين إلى دليل يأخذ بيدهم في التيه الذي أركسوا فيه – كان محمد بن عبد الوهاب جواب السماء لتعيد الجزيرة العربية إلى سيرتها الأولى مصدرًا للنور حيث ارتفعت قواعد البيت العتيق، ونزلت آخرة الرسالات بلسان عربي على نبي عربي.

وما كان أعجب أرض نجد في جدوبتها، وقبائل بني حنيفة وبني تميم في خشونتها، منذ ظهر الإسلام ودارت فيها حروب الردة الضروس حتى استهلت دعوة ابن عبد الوهاب، لتبدد فيها مرة أخرى ظلمات شرك ران على القلوب، وزلزل قواعد الجماعة، ورحض مواهب العلماء، وأيئس دعاة الإصلاح!

وفي اختيار السماء أرض نجد بذاتها منطلقًا للدعوة الإسلامية من جديد آية من الآيات، كثيرة العبر والعظات:

ومن أهمها في هذا المقام ثبوت اقتدار الحنيفية السمحة على أن تقود أقدام السائرين على المحجة الواضحة، وأن تحتشد في الصدع بالدعوة أجيال متلاحقة تصنع بها السماء انتصاره في حياته، وتصقل سيوف الشجعان في سواعد صُدُقٍ في اللقاء صُبُر في الشدائد؛ لتزدهر الشجرة، وتنبت الحبة الواحدة مائة حبة في غير من واد من وديان النماء والارتقاء، وأن يعيد التاريخ نفسه فيتيح "للمنهج السلفي" أن يهدي الناس للحق ويفتح أرض الله لعباده: بالفهم الصحيح للدين والجهاد الصادق في سبيله.

وظهور ابن عبد الوهاب وازدهار فكره في مجالسه وانتشاره فيما عداها، وديمومة تطبيقه في حياته نصف قرن أو يزيد شيئًا من حريملا إلى العيينة إلى الدرعية فأصقاع نجد، ومنها إلى الأقطار المتنازحة الديار في جزيرة العرب – هي مواضع الفصل الأول من هذا الباب.

والفصل الثاني فصل في الأصول التي قامت عليها الدعوة وتبادر إلى العمل بفحواها أتباعها واستحبوا الموت إلى سبيلها؛ لتكتب لأمتهم الحياة بإخلاص التوحيد من شوائب شرك عنيد من زعزع العقيدة، فصير الرجال أمساخًا يعيدون مالاً يملك لهم النفع أو الضرر. فلما تحررت نفوسهم من الخرافات والانحرافات كانوا حقًا مسلمين، فقدروا على أن يحملوا تبعاتهم وأن يحدثوا الإصلاح الذي تتنادى به الأمة في كل مكان.

وإذ كان الإمام إمام فقه في المقام الأول، والفقه قوام الشريعة – فقد أوردنا في الفصل الثالث فرعين: أولهما عن (الاجتهاد) وهو أساس الدعوة وعرضنا نماذج من الفقه الإمام من العبادات والمعاملات تتجلى فيها طريقة الإمام في بسط آرائه والدفاع عن الحرية القانونية في إنشاء العقود وأنواع الشروط ليكون الإنسان جديرًا بالخلافة عن الخالق جل ثناؤه في الدنيا التي سخرها له، ولتتضافر حرية السعي في الحياة مع عبادة الله وحده في فتح الأبواب للمسلم، ليتخذ الدنيا طريقًا للآخرة، فيعمر العالم بالعمل الصالح.

أما الفرع الآخر فخاض بالتأويل "الباطني" أو "الرمزي" المعطل للنصوص القطعية الورود والدلالة في العبادات والمعاملات، وهي قوام الدين، من يخرج عليها يتجاوز الإسلام إلى عالم الخيال، ويعمل بتشريع من صنع الناس.

والباطنية هي العدو التقليدي للمنهج السلفي الذي رفع أعلامه عالية محمد بن عبد الوهاب.

الفصل الأول

الداعي إلى الله

(كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها

فإن الأول، لم يدع للآخر مقالاً" واتقوا الله يا معشر القراء

وخذوا طريق من قبلكم) حذيفة

نحن الآن في نجد حيث انتشر المذهب الحنبلي بعد موت الإمام أحمد بن حنبل الشيباني في سنة ٢٤١. وبنو شيبان منتشرون في كل مكان بالخليج العربي من اليمامة (نجد) حتى البحرين.

وفي النصف الأخير من القرن الثالث مكن للمذهب بالعراق تلاميذ الإمام وتلاميذهم، وتقلبوا به في بقاع الإسلام، حتى بلغ الأندلس على يد بقى بن مخلد (٢٧٦).

وفي القرن الرابع مكن له أبو بكر الخلال (٣١١) بالعراق وأبو القاسم الخرقي (٣٣٤) بالشام. ودرج الأتباع على المنهج السلفي للإمام كأسلوب فكر وطريقة حياة. يقول في منهجهم الذاتي والعلمي واحد من أعيانهم [٤٩]:

(هم قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالطة، وغلظت طباعهم عن المداخلة، وغلب عليهم الجد، وقل عندهم الهزل، وعريت نفوسهم عن ذل المراءة، وفزعوا من الآراء إلى الروايات، وتمسكوا بالظاهر تحرجًا من التأويل. غلبت عليهم الأعمال الصالحة، فلم يوقفوا في العلوم الغامضة، بل وقفوا وأخذوا ما ظهر من العلوم، وما وراء ذلك قالوا: الله أعلم بما فيها من خشية بارئها، ولم أحفظ عليهم تشبيهًا، والله أعلم أني لا أعلم في الإسلام طائفة محقة خالية من البدع سوى من سلك هذا الطريق.

وفي القرن الخامس برز من حنابلة نجد عالمان من "بني تميم" هما:

---

(٤٩) أبو الوفاء بن عقيل (٤٣٠ – ٥١٣).

عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي (٤١٠) وعبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي (٤٨٨).

وفي القرن العاشر تعاقب حنابلة مشهورون في نجد. منهم أحمد بن يحيى بن عطوة التميمي (٩٤٨) = (١٤٤١) في بلدة الجبيلة الخالدة بذكرى شهداء حروب الردة وتلمذ له شهاب الدين أحمد بن عبد الله.

كما ظهر فيهم شرف الدين أبو النجا موسى، وأحمد بن موسى، وأحمد بن محمد بن مشرف ثم مرعي بن يوسف الحنبلي النجدي (١٠٣٣ – ١٦٢٣) [٥٠] وعبد الله آل عبد الوهاب (١٠١٠ – ١٦٤٦) وقد ولي قضاء العيينة. فابنه عبد الوهاب (١٧١٢).

وعاصر عبد الوهاب فقيه كبير من "آل مشرف" هو صديقه سليمان بن علي بن مشرف وقد صار أشهر الحنابلة في عصره حتى مات سنة ١٦٦٨م عن مؤلفات معروفة منها كتاب (فقه الناسك في أحكام المناسك).

وولى سليمان قضاء جريملا ثم العيينة، وولد له ابن أسماء عبد الوهاب.

وضرب عبد الوهاب بن سليمان في العلم بسهم؛ وولي قضاء حريملا.

وفي سنة ١١١٥ للهجرة، ١٧٠٣ للميلاد، ولد له ابن أسماه "محمدً".

وآل مشرف بطن من بطون حنظلة بن مالك بن زيد مناة تميم. وتميم من أكبر القبائل العربية عددًا، وأوسعها انتشارًا في إقليم في إقليم نجد. وبهم تمتزج القبائل. ومنها "بنو حنيفة".

قالوا لو تأخر الإسلام لأكلت تميم العرب!

---

(٥٠) وهو القائل:

إذ قلد الناس الأئمة إنني ... لفي مذهب الحبر ابن حنبل راغب
أقلد فتواه وأعشق قوله ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

وإلى نجد كان خلفاء بني أمية يبعثون أبناءهم ليحتفظوا بالفصحى، إذ يُنجدون، فلا تخالط ألسنتهم تطرية المدائن أو عجمة الهجناء، ويعودوا من البادية عربًا خلص اللسان صحاح الأبدان.

ومن نجد اشتهر شعراء العرب منذ الجاهلية: فلهم في أصحاب المعلقات أربعة من عشرة: زهير بن أبي سلمى، وعبيد بن الأبرص، وامرؤ القيس، وعنترة.

ومنهم في المائة الأولى من عُمر الإسلام – أشهر وأشعر شعرائها: الفرزدق وجرير والحطيئة والخنساء.

وبميلاد "محمد بن عبد الوهاب" في هذه البقعة من جزيرة العرب كُتبت لنجد وللمذهب الحنبلي والعالم الإسلامي صفحات جديدة.

* * *

نشأ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي في "العيينة" بوادي حنيفة – وهي قرية باليمامة غرب الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية الحالية – وتلمذ من حداثته الباكرة لأبيه، وكان أبوه مثابة للوافدين من قريب وبعدين، يطلبون التفسير والحديث والفقه على مذهب الإمام أحمد.

حفظ الصبي القرآن قبل العاشرة، وأحاط في حلقة أبيه بكتب السلف، ثم انطلق في العلم ما وسعه، فلما وقع على مؤلفات ابن تيمية ملكت عليه لبه.

وفي المتحف البريطاني في لندن بعض رسائل ابن تيمية نسخها محمد بن عبد الوهاب بخط يده؛ مما يشير إلى أنه يستقصي فكره، ويقتفي أثره بيده وعقله، وسنراه فيما بعد يصنع صنيعه.

وذات يوم قدمه أبوه ليؤم المصلين وهو في فناء السن. بل إن الأب ليقول عن الابن ما يرويه حسين بن غنام – مؤرخ الأيام العظيمة بتكليف من محمد بن عبد الوهاب – لقد استفدت من ولدي محمد فوائد شتى في الأحكام".

ثم حج عالم العيينة الجديد واعتمر، فشهد من بدع الحجيج ومراسم تعظيم القبور والاستغاثة بالموتى ما حزَنَه، وعرف أن فساد الفكر والفعل في أهل نجد ليس إلا بعض الفساد الذي يعرضه – مركزًا في الزمان والمكان – حجاجُ بيت الله الحرام من كل فج.

ثم اجتذبه جلال المكان وعلم علمائه، فرجع إلى الحجاز يتلقى الفقه والحديث على يد الشيخ محمد حياة السندي (١١٦٥)، ثم لزم عالمًا من أهل نجد من آل سيف رؤساء بلده المجمعة، هو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف (١١٨٣) فتذاكر حالة الأمة بعامة، وحالة نجد بخاصة للإصلاح.

وتحدثنا عن استعمال السلاح، والشباب يغري بالقوة؛ فهي أعجل إلى الغرض، وهي بعض الجهاد الذي سيستطرد إليه التلميذ فيما بعد، أما الشيوخ فيؤثرون استعمال العلم، فهو سلاحهم ومألف لهم، وهو أنجح على المدى الطويل وأفلح في النهوض بمجموع الأمة.

قال الشيخ يومًا لتلميذه:

تريد أن ترى ما أعددنا من صلاح للمجمعة؟

قال: بلى.

فقاده إلى قاعة كتبه وأظهره على ما فيها من مؤلفات ثم قال: هذا ما أعددناه من سلاح!

وفي مجلس من المجالس سأل الطالب شيخه عن الأدعية والنداءات التي ينادي بها الناس، إذ يذكرون الأولياء ويزورون – وكأنهم يحجون – الأضرحة فأجاب بقوله تعالى:

(إن هؤلاء مُتَبَّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون).

وسنرى بعد أن السؤال والجواب هما مهمة حياة ابن عبد الوهاب وطريقته؛ فهذا فكر فتى أصيل نبت في بكور الشباب. تزيده السنون قوةً بالمعرفة، والتجربةُ حكمةً بالرأي النضيج، ويهيئ له الصدام طاقة الانفجار.

وبشرية الرسول الخالصة لا تأذن لأحد أن يرفع إلى مقام العبادة أحدًا إلا الخالق جل شأنه، لكن (الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء في ظلمة الليل). كما يقول ﷺ.

فصل الطالب عن شيخه وقد اهتدى طريقته في الإصلاح وهي تعليم دين الله الخالص، فرجع من الحجاز إلى نجد، ليلبث قليلاً، ثم يرحل إلى بغداد ثم إلى البصرة. والبلدان من أسبق مراكز العلم في الإسلام.

* * *

أقام العالم الناشئ في البصرة سنوات أربعًا درس فيها على عالمها الشيخ محمد المجموعي علوم الحديث واللغة، ورأى من تقديس الشيعة فيها للمزارات والأضرحة والأئمة ما أربى على ما شهده في الحجاز، فاستنكره في مجالسه فكان يبهت سائليه فيبلسون.

قال فيما بعد: (كان أناس من مشركي البصرة يأتون إلى بشبهات يلقونها عليّ، فأقول وهم قعود لدى: لا تصلح العبادة كلها إلا لله؛ ويبهت كل منهم فلا ينطق).

وضاقت به صدور الناس، واعتدوا عليه وعلى شيخه المجموعي. فخرج في حمارة القيظ من البصرة إلى بلدة الزبير، فبقي فيها أيامًا يفكر في الذهاب إلى الشام، ومنعته الضيقة. فرجع إلى الأحساء، فأقام زمانًا في ضيافة الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي، ثم قفل راجعًا إلى حريملا [٥١] وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. وكان أبوه قد انتقل إليها من العيينة لخلاف مع أميرها.

وفي الحريملا استقر فكره على إعادة الناس إلى التوحيد، والقضاء على مظاهر الشرك، فوضع كتابه (التوحيد هو حق المولى على العبيد).

---

(٥١) ورد في بعض الكتب أن الشيخ ذهب من بغداد إلى كردستان وإيران، ودرس التصوف ثم عاد عن طريق بيت المقدس، وكرر ذلك بعض المستشرقين وهو غير صحيح، إذ لا يذكر علماء نجد ممن ألفوا في سيرة الشيخ. ولم يورد آل الشيخ فيما يكتبونه أنه خرج إلى خارج جزيرة العرب. وقد ناقشنا في هذه الواقعة الشيخ عبد العزيز بن باز كبير علماء السعودية في الرياض مساء يوم ١٩٧٦/١/١٤ فأنكر ما أورده المؤلفون من رحلة الشيخ إلى كردستان وإيران، وقرر أنه تلقى هذا عن أشياخه ومنهم حفدة الشيخ وبخاصة شيخه الذي تلقى العلم عليه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

وثابت أن الشيخ (ابن عبد الوهاب) لم يعرف اللغة الفارسية، ولا أثر في فقهه أو كتبه لذلك.

وهو قد أعلن في بعض رسائله أنه لا يدعو إلى مذهب صوفي أو فلسفي.

إنما وردت هذه الشبهة في كتاب لمؤلف غير معروف (لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب)، ولم ترد في كتب من عاصروا الشيخ كتلميذه حسين بن غنام، أو بعده بسنوات كابن بشر.

والشيخ قد ذكر رحلاته، وليس فيها رحلة إلى فارس أو خارج البلدان العربية. ففعل الشيخ وعلمه عربي خالص، ومن أصالته العربية كان تلقي العقول له بالقبول.

واختلفت آراءه في مؤلفه عن آراء أبيه، فصاحب أباه بالمعروف حتى توفي في سنة ١١٥٣هـ. عندئذ أعلن دعوته ونشر كتابه. وتناقلت آراءه بلدان العارض، من حريملا إلى العيينة فالدرعية. ذلك المحور الذي كان يتحرك فيه ليحرك جزيرة العرب حوله.

واستنسخ بعض كتابه، فذاع بين المتفقهة من أهل نجد، وظهر تأثيره في كيد الكائدين له، فحرضوا بعض العبيد ليقتلوه، فكمنوا له في جوف الليل ليتسوروا داره لولا أن مر بهم بعض السيارة من البدو، فانقض الكمين ونجا الشيخ.

ولم يكن صدفة أن تسوق السماء هؤلاء، وإنما سهرت عين السماء على حياة رجل أعدته ليحدث الإصلاح المنتظر.

* * *

هجر الشيخ حريملا إلى العيينة كمثل ما هجر البصرة – فالعيينة مألف له، والهجرة سنة الرسل – والشيخ عليم بتاريخ الجهل في بلدان نجد. لقد قتل جهال بلده الجناح في ذات يوم علماءهم كلهم!

وسيرى قبل أن يموت بعشر سنين بلدة الخبراء تقتل عالمها (منصور أبا الخيل) وأخاه وهما في طريقهما للمسجد ليؤم المصلين منهم.

وفي العيينة أصهر إلى أميرها (عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر) ثم صار الأمير من أتباعه، وعلا نجم الشيخ بعد إذ جاهر الأمير بدعوته وازداد أتباعه، وكان قد بلغ الأربعين من عمره، والسلطة معه.

وتأييد السلطة للمذاهب عظيم الأثر في انتشارها محلية كانت أم عالمية، علمية كانت أم اجتماعية:

فالأفكار إذا أيدتها السلطة تأخذ سبيلها إلى الناس في يسر وقصير أجل.

وإذا عارضتها فقد تفسد عليها أمرها إذا كانت غير قادرة على البقاء، لكنها إذا عارضت الفكر الصحيح هيأت له الأسباب: فإما أتاحت له الانتشار الذي يشبه الانفجار، وإما أخرته زمانًا أو أخسرته معركة، لكنه لا يموت.

ولقد كان ذلك دأب الإسلام من يوم ظهر: قاومته مكة فانتشر. وعملت المدينة في كلاءته – إذ صار بدولة – فبلغ حيث أراد الله في مهاب الرياح الأربعة. ولما عوقت الدولة – بجهل أولى الأمر – فكر ابن تيمية، حبس ومعه تلميذه ابن القيم، لكن الفكر ملك أفئدة العلماء في انتظار ابن عبد الوهاب، لتفجر ينابيعه، ويستخدم السلطان في نشره.

والخرافات بضاعة مزجاة في كل مكان، وبنجد خاصة، لقلة العلماء والمتعلمين وفساد آراء الكثيرين:

فهذا "فحل النخل" في بلدة منفوحة يشد إليه العوانس رحالهن فيدعونه مبتهلات: (يا فحل ارزقني زوجًا قبل الحول).

وهذه شجرة الذيب تؤمها النساء، ويعلقن عليها خرقًا بالية لعل العوانس منهن يرزقن الأزواج والعواقر يرزقن الأولاد والوالدات يبقى لهن ذكورهن.

وهذا قبر زيد بن الخطاب في "الجبيلة" [٥٢] يحج إليه الناس ملتمسين تفريج كروبهم.

وهذا غار (بنت الأمير) في أسفل (الدرعية) يهدي إليه الخبز واللحم.

---

(٥٢) ورد في بعض الكتب أن الشيخ ذهب من بغداد إلى كردستان وإيران، ودرس التصوف ثم عاد عن طريق بيت المقدس. وكرر ذلك بعض المستشرقين وهو غير صحيح، إذ لا يذكر علماء نجد ممن ألقوا في سيرة الشيخ، ولم يورد آل الشيخ فيما يكتبونه أنه خرج إلى خارج جزيرة العرب. وقد ناقشنا هذه الواقعة الشيخ عبد العزيز بن باز كبير علماء السعودية في الرياض مساء يوم ١٩٧٦/١/١٤ فأكد ما أورده المؤلفون من رحلة الشيخ إلى كردستان وإيران، وقرر أنه تلقى هذا عن أشياخه ومنهم حفدة الشيخ وبخاصة شيخه الذي تلقى العلم عليه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

وثابت أن الشيخ (ابن عبد الوهاب) لم يعرف اللغة الفارسية، ولا أثر في فقهه أو كتبه لذلك.

وهو قد أعلن في بعض رسائله أنه لا يدعو إلى مذهب صوفي أو فلسفي.

إنما وردت هذه الشبهة في كتاب لمؤلف غير معروف (لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب)، ولم ترد في كتب من عاصروا الشيخ كتلميذه حسين بن غنام، أو بعده بسنوات كابن بشر.

والشيخ قد ذكر رحلاته، وليس فيها رحلة إلى فارس أو خارج البلدان العربية. فعقل الشيخ وعلمه عربي خالص، ومن أصالته العربية كان تلقى العقول له بالقبول.

وهذا رجل في "الخرج" اسمه (تاج) يقدمون النذور له في انتظار نفعه واتقاء ضره. حتى الفلوات كانت تقدم فيها القرابين إلى الشياطين لترضى!

وصاحب النذر يذبح ذبحًا ويلطخ جسمه بدمه ليقبل نذره.

والمدين يذرف الدمع عند قبر الولي ليعينه صاحب القبر على سداد دينه.

والراعي يضع قلائد في أعناق غنمه لتعيش. والتاجر يضع ظلف الحيوان على باب متجرة.

والناس يحملون الرقي والتمائم والأحجبة والخرز، والنساء يلطمن الخدود وراء الجنازات، ويولولن كأنهن الشياطين الفزعة.

وهناك أولياء أحياء وقبور موتى يقدسها ويقدسهم الناس، وفي كل مكان أصحاب بدع وتجارات بها كالتي أسلفنا في غير موضع.

* * *

استفتح الشيخ جهاده ببيان منهاجه فقال: إنه لا يدعو إلى طريقة جديدة وإنما يحيى الدين، ويدافع عن السنة ويبدع الخارجين عليها، ويجتهد رأيه، ولا يقلد أحدًا.

وإذا وجد في غير المذهب الحنبلي ما هو أصلح للناس – فهو يذهب إليه باجتهاده: قال في إحدى رسائله: (إني لم آت بجهالة، بلى أقولها ولله الحمد: إن ربي هداني إلى الصراط المستقيم دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، ولست ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفي أو غيره، بل أدعو الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسوله ﷺ التي أوصى بها أول أمته وآخرهم).

وانطلق يتلقى بيعة الجمهور له (على دين الله ورسوله وعداء أهل الباطل، كما تبايع على عداء كل من عادى الشيخ وموالاة كل من والاه ولو أنه أميرنا عثمان بن معمر). فالشيخ يحتاط للدين من فلتات الأمراء وانحرافاتهم، ويرفع شأن الدعوة على الولاء للحكام لتكون كلمة الله هي العليا.

وستسلك الدعوة في هذا السبيل على الدوام، فنسمع قول ابن عبد الله إذ حمل رسالة أبيه بعد وفاته في إحدى مناقشات عبد الله لأهل مكة سنة ١٢١٨ = ١٨٠٣:

(مذهبنا في الأصول مذهب أهل السنة والجماعة، وطريقنا طريق السلف).

فلا جديد في المذهب أو الطريقة، وإنما الجديد في العزم والتصميم وفي اتخاذ الجهالة وسيلة له دون الاكتفاء باستنكار المنكر بالقلب أو بالكلام.

وأطلق أتباع الشيخ على أنفسهم (الحنابلة) أو (السلفيين) أو (الموحدين).

وأطلق خصومه على دعوته وصف الوهابية على اعتبار أنها بدعة. وتمادى الأتراك في الأضاليل. وقالوا عن أصحابه: إنهم (الخوارج) أو (الروافض) والطائفتان نقيضان للدعوة. وهما فيما بينهما خصمان لدودان، فإنما خرج الخوارج على علي وشيعته والأمة التي بايعت له، والشيخ يدعو دعوة الأمة وأهل السنة، ولا يذهب مذهب الشيعة.

وفي أوائل القرن الهجري الحالي كتب مؤلف من أصل تركي هو إسماعيل سرهنك باشا يقول: إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (..... أتى بعبارات مزورة ولبس بها على العوام حتى يتبعوه، وألف لهم في ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد. وألف العلماء رسائل في الرد عليه، حتى أخوه الشيخ سلميان وبقية مشايخه).

ولا ينقض الفكر إلا فكرًا أعلى منه حجة. ولو كانت مخالفة الأخ لأخيه حجة لحججنا المؤلف بكتاب (عنون المجد في تاريخ نجد) حيث نقرأ فيه قول ابن بشر: (كان للشيخ محمد أخ هو سليمان بن عبد الوهاب كان مناوئًا لأخيه، ألف رسالة يعترض فيها على دعوته اسمها (الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية)، وفي سنة ١١٩٠ قدم الدرعية تائبًا، وبقى فيها حتى وفاة أخيه الإمام).

ولا على الإمام لو خالفه واحد، فلقد خالفه مالا عدد له ممن جروا وراء الشهوة أو السلطة أو غلبت عليهم الغفلة.

وأكثر الذين يخالفون الشيخ ممن لهم وزن لا يخرجونه على الحق. بل يختلفون في التقدير فلا يوافقون على تكفير الرجال من جراء ما يفارقونه عن جهالة ويبدعون البدع ذاتها ومن فارقوها. ويرونهم يعملون أعمال الكافرين عن غير فهم أو عن تقليد. والتقليد بذاته إحدى الكبر، إذ لا يقبل تقليد في العبادات، لأن الإيمان لا يحتمل التقليد. بل يجب له الإدراك الذاتي.

والمعنى الأساسي للشهادة أن الأمر كله لله سبحانه. وليس في الوجود ما يعظمه الناس سواه وهو القائل جل جلاله: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ**

اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولكن الناس يلغون ذواتهم وكراماتهم ويمجدون الملوك والأقوياء والقوى المجهولة بالفعل أو بالفكر، ويحجون إلى مقابر الأولياء، ويقدمون لها النذور، ويذبحون الذبائح، ويقيمون القباب الشامخة للموتى، ويشدون الرحال إلى القبور في مظاهرات كأنها أداء الشعائر! ويطوفون بمقابرهم طواف الطقوس التي يمجدها اليهود والنصارى. بل إن من الناس من يحلفون بالله، فيكذبون، فإذا حلفوا بالأولياء لم يحلفوا إلى صادقين!

ومن الردة عن الدين ما هو فعلي، ومنها ما هو رسمي: ومن الفعلي أن يقارف الناس أعمال الكفار أو يعطلوا حدود الله وإن كانوا ينطقون بالشهادة، أما الكفر الرسمي فهو المجاهرة بالإلحاد الصراح. وقل أن يقع..

والفرق بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام أنهم لما وجدوا الله واتحدوا على دينه خلصت عقيدتهم وسمت نفوسهم وجاهدوا للدين فسادوا العالم في سنين بعد أن كانوا مسودين من شمال ويمين، من الروم والفرس!

والفرق بين الأجيال الثلاثة المفضلة (جيل الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين) وبين ما أعقبها من أجيال يظهر جليًا في ظهور الإسلام وازدهاره في القرون الأولى، في حين كانت القرون الأخرى قرون انكماش في الفكر وحرمان من الابتكار وازدياد للتخلف، كلما تتابع عصر بعد عصر وبأقدار متناسبة مع ظهور البدع.

وطلب الخير من غير الله تعويل على قوى مجهلة ومضللة وإهدار لإنسانية الناس وتعطيل لسعيهم وتخريب لمرافق الدنيا!

وحذر البطش من السلاطين والشياطين والمجهولين وغضب الموتى – يورث الجبن والقلق والوهم فتسل الأنفس وتصاب قرائح الناس بالشلل.

لذلك كان الإسلام حربًا على الأصنام أيًا كانت: دمي أو أشياء أو أشخاصًا أو أفكارًا – تحول دون توحيد الواحد القهار.

كان للعرب في الجاهلية شجرة (ذات أنواط) يعلقون عليها سلاحهم، فنهاهم عنها النبي عليه الصلاة والسلام.

وتبع عمر هدي النبي في شأن الشجرة التي بايع تحتها المسلمون (بيعة الرضوان)، فأمر بها فقطعت، لأنه عرف أن العرب يحنون إليها، مجرد الحنين.

ونهى النبي عليه الصلاة والسلام عن اتخاذ القبور مساجد قال: (إن من كانوا قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) فانتهى الناس زمانًا ثم عادوا.

ولما نهى ابن تيمية عن هذه البدع وأمثالها وعذب وسجن وازداد فكره ذيوعًا في الأمة، لأنه ثبت ولم يتراجع. ولما مات في سجنه زاد علوًا في ضمير الأمة وتأثيرًا في فكرها: فحمد بن عبد الوهاب يجيء على موعد مع الزمن. ولما ساقت السماء إليه تأييدًا من أمير العيينة كان الله يزع بالسلطان إذا عمل بالقرآن.

وشق الشيخ طريق ابن تيمية من جديد دون أن يقف عند النصح أو التدريس – أن قد واتاه الزمان ليترقى من تدريس الفقه إلى تطبيقه في الأمة والدولة، وفي فرصة لم يتحها الزمان لابن تيمية.

١- هدم قبورًا كان يستغاث بأصحابها، وفي طليعتها قبة (زيد بن الخطاب) في الجبيلة.

٢- قطع الشجرات التي كان الضلال ينسبون إليها الكرامات. فلم تعد الشجرة الملعونة (الذيب) ترزق العوانس رجالاً أو العواقر بنين.

٣- وجلس مجلس التدريس المنظم لمنهج متكامل يحمل مسئولية تنفيذه حاكم يقدر على تطبيقه في جماعة تتبادر به إلى نصرة دينها وصلاح دنياها، فيسر الإصلاح في كل وجه.

٤- وبعث رسالاته للعلماء في سائر أرجاء الإسلام.

٥- وأقام الحدود: ففي ذات يوم جيء بامرأة تزني متلبسة. وشهد عليها الشهود وأقرت، وثبت أنها صحيحة العقل، وكانت تمت إلى أمير الأحساء بنسب، فحسبت أنه سيعصمها من الرجم، لكن الشيخ أمر بحدها، فرجمت. وكان أمير العيينة أول من نفذوا الحد فيها.

وقامت قيامة أمير الأحساء سليمان بن محمد بن عزيز، وبصيص إليه الأدعياء من العلماء بالأذناب. قال قائل منهم: إن حد الرجم لا يوقع إلا بعد استئذان ولي الأمر، واحتج الشيخ عليهم بصحيح الفقه أن من تغلب على بلد أو بلدان كان له حكم الإمام في جميع الأشياء، والناس من قبل الإمام أحمد حتى أيام الإمام محمد بن عبد الوهاب لم يجتمعوا على إمام واحد.

وطلب أمير الأحساء إخراجه من العيينة مستندًا إلى فتيا هؤلاء العلماء، وكتب إلى أمير العيينة يتهدده بأنه سيمنع إرسال حقوق الأمير لديه، على نخل تحت يديه، وبأنه سيمنع خراجًا كان له في الأحساء مقداره اثنا عشر ألف دينار.

وأبلغ أمير العيينة الشيخ بما جاء من وعيد.

وفي رواية أخرى أن أمير الإحساء كتب إلى أمير العيينة: (اقتله فإن لم تقتله قطعنا – خراجك).

وكان قلب الأمير أضعف من أن يصبر في الشدة، ومن أن يجاهد في الله، فاكتفى بأن يطلب إلى الشيخ الخروج عن دياره.

قال الشيخ: عن الذي أدعو إليه هو دين الله، وإن صبرت واستقمت وقبلت هذا الخير فأبشر بأن الله سينصرك ويحميك من هذا البدوي وغيره، وسوف يوليك الله بلاده وعشيرته...

قال الأمير: إنا لا نستطيع محاربته ولا صبر لنا على مخالفته.

هكذا كان فزع أمير العيينة من أمير الأحساء أكبر من خشية الله أو فهمه لمصلحته، فخرج الشيخ من العيينة إلى مهاجره الثاني في الدرعية حيث أراد الله أن يبلغ أوجه.

إلى الدرعية

خرج الشيخ على قدميه سنة ١١٥٨ لم يعطه أمير العيينة راحلة، وسار طول النهار راجلاً إلى الدرعية حتى دخلها بليل. فقصد واحدًا من أتباعه، وخاف الرجل أمير الدرعية (محمد بن سعود) فأنزل الشيخ على قلبه الطمأنينة.

وكان من أتباعه بالدرعية أخوان للأمير هما مشاري وثنيان ابنا سعود [٥٣]

لجأ مشاري وثنيان إلى زوج الأمير "فحدثاها حديث الشيخ وما يدعو إليه، فقالت للأمير (إن هذا الرجل ساقه الله إليك، وهذا غنيمة فاغتنم ما خصك الله به)، وقال قائل من الأخوين: (سر إليه بنفسك وأظهر تعظيمه – يسلم من أذى الناس) فسار إليه.

قال له الأمير إذ لقيه: (ابشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة).

قال الشيخ: (وأنا أبشرك بالعز والتمكين وهي كلمة "لا إله إلا الله" من تمسك بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد. وهي كلمة التوحيد. وأول ما دعا إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم).

قال الأمير: (يا شيخ، إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه، وأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به، الجهاد لمن خالف التوحيد، ولكن أريد أن أشترط عليك اثنين:

الأولى: نحن إذا قمنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان أخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا.

والأخرى: أن لي على الدرعية قانونًا (فريضة) آخذه منهم في وقت الثمار وأخاف أن تقول: لا تأخذ منهم شيئًا).

قال الشيخ: (أيها الأمير)، أما الأولى فابسط يدك أبايعك: الدم الدم والهدم الهدم، وأما الأخرى فلعل الله أن يفتح لك الفتوح فيعوضك الله عن الغنائم ما هو خير منها).

---

(٥٣) آل سعود من عشيرة عنترة، ومن قبائل ربيعة من حفدة بكر بن وائل ولربيعة فروعها في نجد والعراق والشام وكان جدهم مانع بن المسب المريدي يفطن بلدة القطيف وترطه لحمة نسب بابن درع صاحب حجر اليمامة والجزعة المعروفتين قرب الرياض. فقصد إلى ابن درع سنة ٨٥٠ – ١٤٤٦م فأقطعه قطيعة استقر بها على مقربة من الدرعية، فاستعمرها وتناسل فيها حفدته وزادوا رقعتها، وجعلوا الدرعية عاصمة لها.

وبسط الأمير يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد في سبيله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ودخل الشيخ المدينة واستقر عند الأمير.

ولئن كان محمد بن عبد الوهاب هو الذي يفرض على محمد بن سعود شروطه بعدم اقتضاء الضريبة، إن الملاحظة الأساس التي يتمثل فيها طابع الدعوة منذ برزت إلى الوجود – هي العمل بكل سنة الرسول، لذلك ترى المحمدين (ابن سعود وابن عبد الوهاب) يستعملان في البيعة صيغة الرسول فيستحضران ما صنعه الرسول وأنصاره والمهاجرون ليصنعاه من جديد، وأن البيعة كانت على الجهاد، فلم تعد المرحلة المقبلة مرحلة هداية أو إرشاد، فلقد تطورت طريقة الشيخ بعد نجاحه في العيينة وفشل أميرها وجبنه، وأمسى لزامًا أن تتغير الطريقة لتصبح الدم الدم والهدم الهدم.

ولئن لوحظ أن السلطان رجا الإمام ليبقى له دخله المفروض على الناس لينفق منه على دولته – إن الإمام سما بالدولة وحمى الناس، فألغى الضريبة على الناس ودعا للأمير بالنصر الذي يعوضه ما فاته. ونصر الله أكثر، وكل أولئك كان، فلقد صدق المحمدان، والله مع الصادقين.

* * *

ذاعت أنباء هجرة الشيخ من العيينة إلى الدرعية فأدت أعظم الخدمات للدعوة بنشر تعاليمها وأخبار ما حققته في العيينة، وهلع أميرها وبطش أمير الأحساء. وتعاظم الرجاء في الدرعية ومن فيها. والفكر بخدمة الأصدقاء والأعداء على السواء.

وتوالت وفود نجد وما جاورها يعتنقون الدعوة، ويعودون إلى بلدانهم مبشرين ومنذرين ومعلمين.

وطالت سنوات التدريس، فصارت بشريات الوفود من كثرتها وتلاحقها طنينًا في كل سمع، وحديثًا في كل مجتمع!

ومنهاج الشيخ في الدرس – كمنهاجه في الحياة قاصد صريح وكمنهاجه في التأليف – لا يزخرف القول ولا يرقش الحجج، بل يجيء بها من مصادرها: (القرآن والسنة وعمل السلف). وهو عربي يفاقه العرب بآيات كتاب لسانه عربي وسنن نبي من العرب.

وهو القادم من ميادين التجارب ونضو العبادة الذي هزل التقشف قوامه. ناصح الجيب نقي القلب محبب إلى الناس. يحمل هموم تبعاته. لا يهيش أحد في مجلسه ولا يُثلَب غائب. وهو فياض السخاء ممسك بالزمام. لا يفتات الأمير عليه. وإنما ينطلق في خدمة الدعوة من غزاة إلى غزاة. إن مهاجمًا وإن مدافعًا. ويطبق أحكام الإسلام ويلزم كل قبيلة أن تتبع قانون المنتصر وما هو إلا عبادة الله وحده والزراية بالتماثيل والأصنام والخرافات الفعلية والفكرية ليعيد على القوم كرامة المسلم.

وأشرقت على جزيرة العرب أيام عظيمة كأنها من جلال صنيعها وبهائه تقدم العذر للتاريخ عن سابقه قبائل نجد أيام ردة العرب.

بل جاء عثمان بن معمر يسعى على استحياء، ويلتمس أن يرجع الشيخ إلى العيينة، فلم ينقبض عنه ولكنه وعظه، فهو قد بايع على ألا يترك ابن سعود وعلى أن يكتب الله لهما النصر، وأنهما لمنتصران.

وفي سنة ١١٦٣ كان الشيخ في قمة السلطة، وقتل عثمان بن معمر في العيينة، فقصد الشيخ إليها. وأمر عليها ابنه مشاري بن عثمان، وبعد عشر سنين عزل مشاري لفساده. وهدم قصر آل معمر، وهم أخوال آل سعود.

ولما انتشرت الدعوة في بلدان نجد اشتد عليها الأمراء الذين يترك أتباعهم أقاليمهم إلى الدرعية، إذ أصبحت دار هجرة يؤمها الناس. أو يتجهون تلقاءها بقلوبهم، ويصدر منها المجاهدون والدعاة والآراء إلى غير مكان. وتنشأ فيها الأجيال على العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة لله، ومحبة الجهاد في سبيله، والزهد في زخرف الحياة ومتاعها الكاذب، والسعي لكل ما هو حق ومصلحة يأذن بها الشرع، لا رفث ولا فسوق ولا خديعة، بل مجتمع سيلفي نموذجي يتواصى بالخيرات ويتضامن في المكاره. والشمل جميع والمودة سابغة والأخلاق رغيبة. والجهاد العسكري يصهر معادن الرجال، فينفي خبث الأنكاس والأرجاس ويبقى الفضائل والقوم يتوافدون إلى الميادين أو منها فرحين مستبشرين، تشد أزرهم أخلاق النصر التي تعودوها.

وأول قانون الإسلام أنه يبلغ بمجتمعاته غاية الطهر ونهاية القوة لإخلاص التوحيد وانتصار الناس على شهواتهم وغفلاتهم، يوم يصدقون ما عاهدوا الله عليه، فتصير الدولة لهم ويسبقهم الفزع منهم إلى قلوب أعدائهم. ويفرحون بنصر الله لهم والفتح القريب عليهم.

وملاك الأمر في الإسلام: عبادات تقف المخلوق بين يدي خالقه صباح مساء لتسمو به، وقُربات يرتفع بها درجات إلى رضوانه جل شأنه، وحدود زاجرة تمنع من الإجرام من لم يجرم – وهم سائر الناس – وتعزيزات كفيلة بالجزاء على الخطيئة أيًا كانت، ومعاملات قوامها العمل للحياة، يستخدم الناس فيها المال ولا يستخدمهم، فلا يكنزونه أو يحسبونه ولا يأكلونه بالباطل أو بالربا أو بالغرر، ونظام اجتماعي يحمل "إيجابية" الرجل فريضة الإنفاق على الأسرة ويحمل وظيفة المرأة بالتصون، ويخول الزوجين أسباب حسن التبعل.

فالأسرة فيه – لا الفرد – نواة المجتمع، وبهذا ينهض المجتمع على أقدام لا على قدم واحدة ويكاد الجار يشرك الجار من تواصله، والخادم سيد القوم. والأمير أجير عند الرعية والرعية مؤدية له ما يؤديه لخالقه.

وفي كل ذرة من ذرات هذا النظام تجري فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجرى الدم في الجسم. فتجعل التواصل اليومي والتكافل الاجتماعي مجعل المنتظم الداخلي لنشاط الفرد وتعاون الجماعة، وللعمل اليومي لولي الأمر، فيعيد هذا المنظم ميزان الفرد والجماعة والدولة إلى الاعتدال في أول بادرة جديرة بالتقويم والتسديد.

وفي ذلك كله تستعمل الحنيفية السمحة الفطرة البشرية وتشجعها كمثل استعمال الترياق المنبعث من الغريزة يفعل فيها ويفعل بها، فيصلحها ويصلح بها، فالشريعة لا تتغيا إصلاح الناس بالقوة القاهرة للحرية، أو بالقسوة التي تذبل بها الطبيعة البشرية، أو بالقوالب المصبوبة التي تقمع الشخصية الإنسانية، ولا تتوسل إلى أنفس الناس بطريقة مصنوعة قد يخرج المكلفون عن إطارها، بل عمادها السليقة المطبوعة على الخير، لتعود إلى الأصل إذا انحرفت كلما هديت إليه، وهي أهدى وأقوى وأقصد بعناصرها الذاتية التي تزين الإيمان وتحببه، وتكره الكفر والفسوق والعصيان، وتنفر من الظلم وتُغِدّ الخطى للتقدم... صنع الله الذي خلق هذه الأنفس، وشرع لها أسباب صلاحها ووسائله.

ووطأ الأكتاف في نجد للطهارة والقوة اللتين تتناتجان فتحدث كل منهما الأخرى أن أقاليمها كانت مذ خلقها الله بمنجاة من التطرية المجلوبة من الحواضر، أو التخليط الشعوبي الذي أعجل الفرس والترك والأوربيين إلى أقطار المسلمين. فاستعصمت فيها الأصالة العربية ثم نمت نماءها الطبيعي، فأصبحت أسمع لصوت الدعوة وأقدر على أن تذيع بها في الآفاق البعيدة وأن تبقى فكرها الوضاء ينشر الأضواء في القرون التالية.

وموقع الدرعية في صميم نجد يهب لها القدرة على تحقيق أغراض الدعوة وأسباب الانتصار، إذ كانت على مبعدة خمسمائة كيلو متر من البحر في الشرق وألف كيلو متر من الحجاز في الغرب. فهي قائمة حيث تلتقي الطرق وتفترق، وتريح القوافل القادمة، من الجنوب أو الشمال في مكان صالح لنشر الأفكار الصحيحة ونجاحها في تحقيق أغراضها، إذ تشهد القوافل في تطبيقها الكامل في مجتمع متكامل تحكمه دويلة صغيرة تبتغي وجه الله وحده، ولهذا كانت محط آمال المتفائلين ومحل سؤال من الكثيرين.

وليست الكيلومترات في الصحراء مسافات، والناس فيها أسمع وأبصر وأكثر تواصلاً مما يتصور أهل الحضر.

وفي النجوم كثير من الخصوم: ففي الأحساء آلاف من الشيعة الاثنا عشرية [٥٤]، وفي القطيف آلاف من القرامطة [٥٥]، وفي اليمن ملايين من الشيعة الزيدية [٥٦]، وفي ينبع آلاف من الشيعة الكيسانية [٥٧]. وفي عمان خوارج إباضية [٥٨].

وفي سائر الأقاليم أهل سنة تجعلهم الجهالة والقربى أشد عداء للدعوة سواء في الشمال في الشام، أو في الشرق في العراق، أو في الجنوب في تهامة وعسير، أو في الغرب في الحجاز.

لكن الخصام كان أعجل في نشر الدعوة والإذاعة بأنبائها لما فيها من فكر أصيل لاتنال منه الأباطيل. كما كانت إحاطة هذه الأقاليم بنجد أنفع للدعوة، إذ جعلت الدرعية في مركز الدائرة، وجعلت (حريملا – العيينة – الدرعية – الرياض) مجعل المحور القادر على التحكم بالعقيدة الصحيحة والتضحية في سبيلها.

---

(٥٤) نسبة إلى قولهم بإمامة اثنى عشر إمامًا وهم الإمامية أو الجعفرية نسبة للإمام جعفر الصادق.

(٥٥) نسبة لحمدان قرمط، وهم فرقة من الإسماعيلية يقولون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

(٥٦) نسبة للإمام زيد بن علي.

(٥٧) نسبة لكسيان مولى بجيلة يقولون بإمامة محمد بن الحنفية (ابن علي بن أبي طالب من زوجة من بني حنيفة).

(٥٨) فرقة من الخوارج هي أكثرهم اعتدالاً.

وهكذا أتيح لإقليم (اليمامة) أن يعظم شأنه مرة أخرى. ولليمامة – كما يسمى القلقشندي وسط نجد حتى إقليم الأحساء – ذكريات أعظم عند المسلمين: ففي الشمال من البلدان الأربعة التي ذكرناها تقع جبيلة حيث مقابر الصحابة الذين استشهدوا في حروب الردة. ومواقع معركة عقرباء بين خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب (١٢ – ٦٣٣)، وفي وادي بني حنيفة (وهم بطن من بطون بني بكر بن وائل) عاش أجداد الرجال الأحياء في هذا المكان، ومنهم من بقى، ومنهم من غيرت الهجرات مقامه وحل محله غيره: مثل قبائل عنزة والرشايدة وشمر.

* * *

كان هوذة وثمامة ملكين على نجد عندما انفجر فجر الإسلام.

فجاء هوذة كتاب من رسول الله يقول: (بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي. سلام الله على من اتبع الهدى. واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فاسلم تسلم. وأجعل لك ما تحت يديك).

وأجاب هوذة: (ما أحسن ما تدعوني إليه. وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تتهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك).

فلما وقف عليه الصلاة والسلام على جوابه قال: (لو سألني سيابة من الأرض ما قبلت. باد وباد ما في يده)...

أما ثمامة فأسرته خيل النبي، فلما اقتيد إليه قال له عليه الصلاة والسلام: (ماذا عندك يا ثمامة)؟

قال: عندي خير. إن تنعم تنعم علي شاكر، وإن تقتل تقل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تُعط.

فأمر النبي بإطلاقه، فأسلم، ثم عاد إلى اليمامة فمنع أهلها أن يحملوا الحنطة إلى مكة.

وفي السنة العاشرة قدم وفد اليمامة ووادي حنيفة [٥٩]. فأسلموا وفيهم مجاعة من بني فزازة بن عنفوة فاقطعهم النبي مقاطعات من أرض بني حنيفة، وكان في الوفد "مسيلمة" بن

---

(٥٩) يقول الشيخ في المختصر: (لما فرغ رسول الله ﷺ من تبوك، وأسلمت ثقيف ضربت إليه أكباد الإبل تحمل وفود العرب من كل وجه في سنة تسع. وكانت تسمى سنة الوفود.. فقدم عليه عطارد بن حاجب التميمي من أشارف "بني تميم" جاءوا في أسرى "بني تميم" الذين أخذتهم سرية عيينة بن حصن الفزاري في المحرم من هذه السنة، وكان عيينة قد أخذ أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيًا وساقهم إلى المدينة، فتقدم رؤساء من بني تميم فيهم، كلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم والله غفور رحيم) فلما خرج إليهم قالوا: جئنا لنفاخرك. فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال: "أذنت لخطيبكم" فقام عطارد فخطب فقال رسول الله ﷺ الثابت بن قيس بن شماس، قم فأجب الرجل" فقم ثابت فخطب وأجابه، وقام من جانب بني تميم شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقال رسول الله ﷺ لحسان "قم فأجب الرجل" فقال:

إن الذوائب من قهر وإخوتهم قد بينوا سنا للناس تتبع
إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

قال الزبرقان... قال حسان...

فلما فرغ حان قال الأقرع بن حابس: (إن هذا الرجل لمؤتى، لخطيبه أبلغ من خطيبنا، ولشاعره أبلغ من شاعرنا، ولأصواته أحلى من أصواتنا). فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

ويقول الشيخ في المختصر عن حروب الردة في عهد أبي بكر: (لما كان من العرب ما كان، ومنع من منع منهم الصدقة – جد بأبي بكر الجد في قتالهم، فدعا زيد بن الخطاب يستخلفه (في القيادة) فقال: "قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله ﷺ، فلم أرزقها، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه، فدعا أبا حذيفة بن عتبة، فعرض عليه ذلك. فقال: مثلما قال زيد، فدعا سالمًا ملوى أبي حذيفة فأتى عليه، فدعا خالدًا فأمره على الناس. فسر خالد إلى اليمامة.

فلما فرغ خالد من يزاخة وبني عامر أظهر أن أبا بكر عهد إليه أن يسير إلى أرض بني تميم والي اليمامة... ففرق خالد السرايا في نواحيها، فأتت سرية منهم بني حنظلة وسيدهم مالك بن نويرة، وكان قد بعثه النبي ﷺ مصدقًا على قومه. فجمع صدقاتهم، فلما بلغته وفاة النبي ﷺ جفل إبل الصدقة: أي ردها إلى أصحابها، ولذلك سمى الجفول، فأسندوا إليه أمرهم).

حبيب خلفوه في رحالهم، فأجازه النبي معهم وحذر منه. وكان تحذيره تنبيهًا على ما سينجم في

ويروي الشيخ عن رافع بن خديج قال: (قدمت على النبي ﷺ وفود العرب فلم يقدم علينا وقد أقسى قلوبًا، ولا أحرى ألا يكون الإسلام يقر في قلوبهم، من بني حنيفة وكان مسيلمة مع الوفد).

صف خالد جيشه وقدم رايته مع زيد بن الخطاب، ورفع راية الأنصار إلى ثابت بن قيس بن شماس (خطيب النبي يوم وفد بني تميم) فتقدم بها وجعل على ميمنته أبا حذيفة وعلى ميسرته شجاع بن وهب، واستعمل على الخيل ... أسامة بن زيد، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وصبر الفريقان صبرًا طويلاً حتى كثر القتل والجراح بين الفريقين، واستمر القتل في المسلمين وحملة القرآن حتى فنوا إلا قليلا، وهُزم كل من الفريقين حتى دخل المسلمون معسكر المشركين ودخل المشركون عسكر المسلمين، وجعل زيد بن الخطاب ومعه الراية يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به مسيلمة، وأعتذر إليك من فرار أصحابي، وجعل يشتد بالراية في نحور العدو، ثم ضارب بسيفه حتى قتل رحمه الله ورضي عنه، فأخذ الراية سالم مولى أبي حذيفة فقال المسلمون إنا نخاف أن تؤتى من قبلك، قال: بئس حامل القرآن أنا إذا أتيتم من قبلي، ونادت الأنصار ثابت بن قيس ومعه رايتهم: الزمها، فإنها ملاك القوم، فحفر سالم لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه، وحفر ثابت لرجليه مثل ذلك ثم لزما رايتهما.

ولقد كان الناس يتفرقون في كل وجه وإن زيدًا وثابتًا لقائمان حتى قتل سالم وقتل أبو حذيفة مولاه.

قال وحشي بن حرب: اقتتلنا قتالاً شديدًا حتى رأيت شهب النار تخرج من خلا السيوف حتى سمعت لها صوتًا كالأجراس، ولم يلقى المسلمون عدوًا أشد نكاية من بني حنيفة. لقوهم بالموت الناقع، فكان المعول يومئذ على أهل السوابق.

ولما رجع عبد الله بن عمر إلى المدينة قال له أبوه: (ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألا واريت وجهك عني؟) وأجاب عبد الله: (قد حرصت على أن يكون ذلك، ولكن نفسي تأخرت. وقد أكرمه الله بالشهادة). وذات يوم ذكر عمر وقعة اليمامة فقال: (ألحت السيوف على أهل السوابق ولم يكن المعول يومئذ إلا عليهم، خافوا على الإسلام أن يكسر بابه فيدخل منه إن ظهر مسيلمة. فمنع الله الإسلام بهم حتى قتل عدوه وأظهر كلمته. وقدموا رحمهم الله على ما يسرون به من ثواب جهاد هم من كذب على الله ورسوله فاستحربهم القتل فرحم الله تلك الوجوه).

ومضى زمن على أيام اليمامة وكان عمر يصلي، فرأى رجلاً متنكبًا قوسه، فسأل عنه وعرف أنه متمم بن نويرة أخو مالك ابن نويرة، فاستنشده رثاءه المشهور في أخيه فأنشده حتى بلغ قوله:

وكنا كندماني جزيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكًا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معًا

قال عمر: هذا والله التأبين لوددت اني أحسن الشعر فأرثي أخي زيدًا بمثل ما رثيت أخاك. قال متمم: لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك مارثيته، قال عمر: ما عزني أحد عن أخي بمثل ما عزني به متمم.

هذه البقعة من الأرض، حيث العصبية الجاهلية في عنفوانها، وحيث تدور من بعده عليه الصلاة والسلام أعنف المعارك وأخطرها على الإسلام.

وسنرى حروب الردة في أرض اليمامة وضراوتها ووقوعها بين فريقين يشهدان شهادة الإسلام، لكنهما مختلفان في فهم حقيقة التوحيد، درسًا أساسيًا من دروس الشيخ في مجالس تدريسه وكتبه وبخاصة (مختصر سيرة الرسول).

والسيرة درس تستحبه الأنفس، وفي مختصرها تعليق على الحوادث، واستخلاص للعبر بلغ فيه الشيخ غاياته.

ودرس الردة على الإسلام كله أو بعضه وقيام الحرب من جراء فساد الاعتقاد مع الإقرار بالشهادة حجة للشيخ في صميم منهاجه من:

١- وجوب استخلاص الخضوع لله وحكمه.

٢- وجوب الجهاد والحرب لإعادة المرتد عن بعض الأحكام إلى دين الله الصحيح. والحجج أفعل في الأنفس إذا كانت من سُلاف المحجوجين أنفسهم، أو وقعت في عقر دارهم في نجد كلها أو اليمامة خاصةً. فهي عندئذ تستعمل الزمان الحبيب، والمكان القريب، والعامل الإنساني في الإثبات.

٣- أما الحجة على الشيخ فهي أن يعد للأمر عدته في نفسه وفي الناس وفي الأمير وفي جند الدعوة. فهؤلاء قومه وهذا تاريخهم. وهو ينشد هداية الناس. ووضع الندى في موضع السيف مُضر كوضع السيف في موضعه.

٤- ومن الحجج على الأمير أن يتهور سيف الأمير أو يكون كافر الغضب.

ومن أجل ذلك كانت الحرب مشغلة له وإن لم يخرج مع الأمير للحرب، فهو مسئول عن العلم والإرشاد، مسئول عن شريعة الحرب والسلام، لكن العلم ميدانه وحده، والحرب ميدان الأمير وجند الدعوة.

* * *

في هذه الحقبة النادرة من تاريخ الإسلام عدسة صغيرة يبصر الناظر من خلالها بمعان عظيمة عظمة الإسلام، ونتائج لها أعظم الأثر في خلوده. ومن المعاني جلال الاستشهاد في سبيل إزاحة الكفر من عقول أهل نجد، وتطهير جزيرة العرب من الشرك، بتطهير نجد. وفداحة

الخسائر بموت القراء حتى خيف على القرآن، فأمر الخليفة بجمعه. ومنها إذنه للجيوش أن تفتح أرض الله للإسلام خارج جزيرة العرب بعد حروب نجد وبعد الانتصار الذي يأذن للدعوة بالانتشار.

ولو تهاون "الصديق" في ردة العرب لانطوى المسلمون في جزيرة العرب على أنفسهم منهزمين.

ومن هذه النتائج يتراءى أثر أبي بكر الصديق في كمال حجمه في الإسلام، وإن كانت خلافته أقصر خلافة للراشدين رضي الله عنهم.

أما عن ميادين المعارك فحسبنا منها في هذا المقام أمور:

١- أن الكفاح الذي سالت فيه أرواح هؤلاء العظماء قد تم في المواقع التي ذكرناها والتي ستدور فيها أو في القريب منها معارك دعوة التوحيد الجديدة. وأن بعض من سيخوضونها هم حفدة القوم الذين ناصروا خالدًا فحاربوا معه أو ناهضوه وقاتلوا المهاجرين والأنصار.

٢- إن هذه الناحية وحدها بين عشرات الأنحاء في جزيرة العرب كان فيها منتبئون ثلاثة هم: مسيلمة وطليحة وسجاح بين خمسة في كل أرض المسلمين! وأن هؤلاء المتنبئين كانوا يطلبون بالسيف لأنفسهم صدارة العرب، وأن مسيلمة الكذاب طلب إلى النبي ﷺ (أول ما تنبأ مسيلمة): أن يكون له نصف النبوة ونصف الأرض وقال عن قريش إنهم لا يعدلون، ولم ينس أن ينزل على نفسه وحيًا، وتابعه قومه كفرًا:

سأله طليحة النمري: من يأتيك؟ (يقصد بالوحي)؟ قال: رجمان؟ قال طليحة: أشهد أنك كذاب، وأن محمدًا صادق، لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر! واتبع طليحة مسيلمة، وقتل بعد أن كفر متعصبًا له ولقومه.

وكمثل تعصب هذين لقومهما وشعوذة مسيلمة كانت شعوذة طليحة الأسدي: لقد تنبأ طليحة من أخريات حياة النبي، فهم به أحد المسلمين بضربة سيف، لكنه سلم وأذاع الأشياع أن السلاح لا يجوز في نبيهم، فاستغلظ أمره، ولم يكن أدنى من هذا اللدد عنادًا زعيم فزارة الذي تألفه الرسول بالعطاء، ليطامن جماحهم ويكف غلظتهم، ومع ذلك كان (عيينه بن حصن الفزاري) بعد أن قبض الرسول يقول:

(والله لأن نتبع نبيًا من الحلفين – أسد وغطفان – أحب إلينا من أن نتبع نبيًا من قريش! وقد مات محمد وبقى طليحة)!

ولما سبق بين أسرى المرتدين إلى أبي بكر بالمدينة كان غلمانها ينخسونة بالجريد ويقولون: أي عدو الله، أكفرت بعد إيمانك؟ فكان يقول للغلمان من كبريائه وهمجيته: (والله ما كنت آمنت قط).

وكان عفو الصديق أكبر. لقد حقن دمه، ولأم جراح بني فزارة، ودفع الجميع ليفتحوا الأرض بالإسلام.

٣- إن لقبائل بني تميم مكانة في العرب كما تزخر بذكرهم كتب الأدب، فالوفد من أشرافهم إلى المدينة هم الذين دخلوا المسجد، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجرته يفاخرونه، ولما قبض رسول الله ﷺ كان أول المرتدين.

٤- أن مالك بن نويرة كان عاملاً للنبي على بني يربوع، فكان فيمن رد الزكاة لأصحابها ولم ير لأبي بكر حقًا في اقتضائها. وجاءته سجاح – وهي تميمية من بني يربوع – لتنحدر إلى بني حنيفة فتتزوج مسيلمة الكذاب متنبئ بني حنيفة، ثم تفصل عنه راجعة إلى قومها ليلقى مصرعه يوم اليمامة.

٥- أن يوم اليمامة قد خلده في التاريخ استشهاد ثلثمائة وستين من المهاجرين وثلثمائة من الأنصار ومن الباقين كثيرين، مما أبلغ عدد القتلى مائتين وألفًا من المسلمين.

أما جيش مسيلمة وكان قد بلغ الأربعين ألفًا فقد أفقده الإصرار على الكفر نصف عدده وتغرز في طبيعتهم سليقة الفرقة. وليس بدعًا أن ترى زعيم (فرقة النجدات) الخوارج نجدة بن عويمر – وهو من بني حنيفة – يخرج على الجميع، ليجعل كل إنسان أمةً واحدة! فيرى إقامة الإمام غير واجبة وحسب الجماعة أن تلتزم الحق فيما بينها وبين الأفراد وبينهم وبين أنفسهم.

* * *

والشيخ يستخرج من هذه الحروب التي أفضنا في ذكرها، لما فيها من عبر يستنبطه القارئ. حججًا له على قومه سواء في الفعل أو في الفقه أو في سياسة الدولة أو في أصل العقدية من عمل الصحابة مجتمعين خلف الصديق رضي الله عنهم. وهي – بعد – صيحة للجهاد في سبيل العقيدة يصيح بها الشيخ ويعمل بأصلها في مجالس الدرس وساحات المعارك،

كما يستصحبها كل مسلم – لا يستقعده العيش الغفول عن التصدي للمنكر، أو يستكفه الجبن الجهول عن الجهاد في سبيل دينه.

ومجالس الدرس هي المجال الحي لهذا العلم العملي، وهو القوة الضاربة في يد الداعية: يقول في المختصر ما يفيض فيه في مجالس علمه ويردده في رسائله.

(إن بني حنيفة أشهر أهل الردة، وهم الذين يعرفهم العامة من أهل الردة، وهم عند الناس أقبح أهل الردة وأعظمهم كفرًا، وهم مع هذا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويؤمنون ويصلون...).

ويقول: (وطائفة من أهل الردة – صدقوا مسيلمة أن النبي ﷺ أشركه معه في النبوة، وذلك أنه أقام شهودًا شهدوا معه بذلك، ومنهم رجل من الصحابة معروف بالعلم والعبادة يقال له الرجال فصدقوه لأجل ما عرفوا فيه من العلم والعبادة..).

ويقول: إن العلماء في زماننا يقولون: من قال لا إله إلا الله فهو المسلم الحرام المال والدم لا يكفر ولا يقاتل حتى إنهم يصرحون بذلك في شأن البدو الذين يكذبون بالبعث، وينكرون الشرائع، ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حق الله).

ويقول: (إن بقايا من بني حنيفة لما رجعوا إلى الإسلام وتبرءوا من مسيلمة وأقروا بكذبه كبر ذنبهم عند أنفسهم وتحملوا بأيديهم إلى الثغر لأجل الجهاد في سبيل الله لعل ذلك يمحو عنهم آثار تلك الردة. فنزلوا بالكوفة وصار لهم بها محلة معروفة فيها مسجد يقال له مسجد بني حنيفة، فمر بعض المسلمين على مسجدهم بين المغرب والعشاء، فسمعوا منهم كلامًا معناه أن مسيلمة كان على حق، وهم جماعة كثيرون، لكن الذي لم يقله لم ينكره على من قاله، فرفعوا أمرهم إلى عبد الله ابن مسعود، فجمع من عنده من الصحابة واستشارهم: هل يقتلهم وإن تابوا أو يستبقيهم؟

فأشار بعضهم بقتلهم من غير استتابة، وأشار بعضهم باستتابتهم، فاستتاب بعضهم وقتل بعضهم ولم يستتبه.

والقصة في صحيح البخاري.. فأين هذا من كلام من يزعم أنه من العلماء ويقول: البدو ما معهم من الإسلام شعرة إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله. ومع ذلك يحكم بإسلامهم بذلك؟ أين هذا مما أجمع عليه الصحابة فيمن قال تلك الكلمة أو حضرها ولم ينكر..).

ويقول: (في قصة أصحاب علي بن أبي طالب. لما اعتقدوا فيه الألوهية التي تعتقد اليوم في أناس من أكفر بني آدم وأفسقهم، فدعاهم إلى التوبة فأبوا فخدلهم الأخاديد وملأها حطبًا وأضرم فيها النار وقذفهم فيها وهم أحياء! ومعلوم أن الكافر مثل اليهودي والنصراني إذا أمر الله بقتله لا يجوز إحراقه بالنار، فعلم أنهم أغلظ كفرًا من اليهود والنصارى. هذا وهم يقومون بالليل ويصومون النهار ويقرءون القرآن أخذين له عن أصحاب رسول الله ﷺ فلما غلوا في عليّ ذلك الغلو أحرقهم بالنار وهم أحياء. وأجمع الصحابة وأهل العلم كلهم على كفرهم، فأين هذا ممن يقول تلك المقالة مع اعترافه بهذه القصة وأمثالها واعترافه أن البدو كفروا بالإسلام كله إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله؟

وأعلم أن جناية هؤلاء إنما هي على الألوهية، والذين قبلهم جنايتهم على النبوة. وما علمنا لهم جناية على الإلهية، وهذا مما يبين لك شيئًا عن معنى الشهادتين اللتين هما أصل الإسلام...).

ويقول: (ما وقع في زمن التابعين: وذلك قصة الجعد بن درهم، وكان من أشهر الناس بالعلم والعبادة، فلما جحد شيئًا من صفات الله مع كونها مقالة خفية عند الأكثر – ضحى به خالد ابن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم. فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا، ثم نزل فذبحه، ولم تعلم أن أحدًا من العلماء أنكر عليه ذلك، بل ذكر ابن القيم إجماعهم على استحسانه..، فأين هذا من اعتقاد أعداء الله في البدو...؟).

ميادين تجارب هانت بعدها التضحيات في القادسية واليرموك ومصر، ثم كان الموالي يسلمون من دون معارك تهديهم حقائق الحنيفية السمحة وعدالة الحكام التي يأمر بها الإسلام وأداء الأمانة لمستحقيها.

والشيخ لا يضيع الزمان سدى بل يهذب ويربب، وربما شهد التدريب للحرب، وله آراء في الحرب تسير مع دروسه إلى ميادين المعارك.. فالتلميذ الصالح هو المجاهد الذي لا يقهر.

وأحسن الشيخ استعمال الزمن، والزمن قوة من قوى الطبيعة لمن تريد السماء نصره. والله مع الصابرين.

والناس ينسلون إلى الشيخ من كل حدب، يسقيهم من ينابيع التوحيد وسيرة الرسول وأصول الفقه وفروعه ما يحيى الأنفس.

والحروب في الأقاليم المجاورة للدرعية دائرة الرحى لا تكاد تتوقف للذود عن العقيدة والدفاع عن الجماعة، والانتصارات التي وعد بها الله لا تتخلف، ولهذا شيد الشيخ المسجد الجامع بالدرعية ليسع تلاميذه.. والشيخ حريص على تأليف القلوب بين الوافدين وبين أهل الدرعية، ليجعل بين الجيع أخوة مثل مؤاخاة رسول الله بين المهاجرين والأنصار.

والشيخ خفيض الصوت مستفيض البيان، ينساب شرحه في يسر إلى الآذان والأذهان، فإذا انتهى الدرس فقلما يفتر لسانه عن قوله: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ويأخذ في إعداد رسائله إلى العلماء في بقاع الإسلام. وهي جميعًا تحمل طابع إملائه وتحتوي حججه.

والشيخ يفوت طلابه ويمونهم، فالعلم مسئولية أخذ الله على العلماء موثقًا أن يبينوها، فكل نفقة في سبيل تحصيله وجه عبادة، وأفضلها جميعًا نفقات تعليمه.

وبهذا تكاثرت ديون الشيخ على مدار السنين. وكان يعجز عن السداد، فيقبل من الدائنين نظرة الميسرة. ولا يرضى عن التجاوز. حتى جاء نصر الله بفتح مدينة الرياض، وسدد الشيخ ديونه من نصيبه من الغنائم.

ذلك أن انضمام حريملا والعيينة للدعوة ثبت المحور المكين في نجد، فطوت أخبارها جزيرة العرب كأمر واقع، ونصر وعد الله به، وإن لم يتوقف الصدام الدموي الذي سنتحدث عن قليل منه بعد، وقد أفاضت في تفصيله مؤلفات ابن بشر وابن غنام، وحسبنا أن نشير في هذا المقام إلى أن انتصارات آل سعود طبقت آفاق نجد، وخشى أمير الرياض دهام بن دواس أن تعلو كلمة أمير الدرعية وتضؤل قيمة الرياض. فهاجم الدرعية مرات في سنوات، لكنه كان ينهزم عنها، أو ترد الهجوم عليها بهجوم على عاصمته عامًا بعد عام، حتى حاقت به الهزيمة، وهرب من الرياض فدخلتها جيوش الموحدين سنة ١١٨٧ بعد نحو عشرين عامًا من الحروب الدامية، والوفود تترى تبايع الشيخ على التوحيد قادمة من شتى بلاد نجد: ضرمى وثرمداء والوشم وأثيفية والعزيقية وشقراء والقرعة وسدير والزلافي وجلاجل والحوطة والروضة والخرج والدمام.

ولما اتجه نشاط الدعوة صوب الحجاز رفع الشريف مسعود شريف مكة سنة ١٧١٢ تقريرًا للباب العالي في القسطنطينية ينبه الأتراك العثمانيين على خطورتها على كيان الدولة العثمانية في جزيرة العرب، لكن الدرعية لم تكن تهتم إلا بالدين. فبعثت وفدًا من ثلاثين عاملًا لمناقشة علماء الحجاز، فأفتى قاضي مكة بكفرهم، وزج الشريف مسعود بالوفد في السجن، ومنع أهل نجد من الحج سنين.

حتى إذا تلاحقت انتصارات الدرعية وارتفع شأن الدعوة في شرقي الجزيرة – حسن النصر أمرها في أعين الأشراف الذين يحكمون الحجاز باسم (تركيا) وجمّل بالصبر قلوب أهل الدرعية، فأصبحوا يتصرفون مع الآخرين من مواقع القوة وأخلاق النجاح:

والشيخ يوالي كتبه إلى أهل مكة فيمن يدعوهم للتوحيد الخالص، ولذلك طلب إليه شريف مكة أحمد بن عبد ا لعزيز علماء نجد ليفاقهوا علماءه، واستجابت الدرعية، فبعثت وفدًا رسميًا من العلماء يقدمه خطاب رسمي من أمير الدرعية جوابًا عن خطاب رسمي من شريف مكة، وتظهر في عبارات خطاب الأمير آثار قلم الإمام الذي أملاه، وتواضع الداعية، والجدال بالتي هي أحسن. وهي الطريق التي أمر بها القرآن وجرت عليها السنة. قال: (ولما طلبتم من ناحيتنا طالب علم امتثلنا الأمر، وهو واصل إليكم، ويحضر في مجلس الشريف أعزه الله تعالى. هو وعلماء مكة؛ فإن اجتمعوا فالحمد لله على ذلك، وإن اختلفوا أحضر الشريف كتبهم وكتب الحنابلة....).

واجتمع الرسول – الشيخ عبد العزيز بن الحصين – وعلماء مكة فتفاوضوا فيما هم فيه مختلفون. وهو ثلاث مسائل:

الأولى: ما نسب إليه أنصار محمد بن عبد الوهاب من تكفير المسلمين بالعموم.

الثانية: هدم القباب التي على القبور.

الثالثة: إنكار دعوة الصالحين والشفاعة.

وأنكر ابن الحصين المسألة الأولى، وتمسك بالثانية قولاً بأنه ليس من العلماء من شك فيها. وتمسك بالثالثة؛ لأنها من الشرك الذي فعله القدماء،... فجاءوا بكتب الحنابلة، فوجدوا أن الأمر على ما ذكره ابن الحصين فاقتنعوا.

وسنشهد بعد أكثر من قرن اقتناع علماء مكة والمسلمين معهم، ولكن بعد حروب دامية يحمل وزرها السياسيون والجهلاء، بما فرقت المسلمين وعوقت تقدمهم، وأخرت من وحدة العرب.

كان الشيخ يقول عن نفسه وكأنما يقصد طريقته: (وأنا امرؤ فيّ بعض الحدة، وهي حدة لا تثبتُ حقًا ولا تخرج بصاحبها عن الجادة).

والحدة عرض القوة لكنها تضعف الحجة، وتسد الطريق على الموعظة).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الجادة، ومن الإنصاف يصحح الأمر بالمعروف طريقه؛ ليكون أقصد إلى الغرض وآكد للقبول. وبعض الحدة أنجح للذين يتولون التنفيذ أو القيادة في بعض الظروف.

وليست عبارات الشيخ إلى شريف مكة أسجح من عباراته في رسائله إلى العلماء.

يكتب في خطاب: (فالواجب منك مذاكرتنا ونصيحتنا وتدريان عبارات أهل العلم لعل الله يردنا بك إلى الحق).

وفي ثان (... فإذا أنا لم أفهمه ولا معنى آخر، فأرشدني عسى الله أن يهدينا وإياكم وإخواننا لما يحب ويرضى).

فالشيخ لا يدع حقه لباطل غيره.

وفي ثالث يصدع بأصل من أصول الاجتهاد فيقول: (ومتى لم تتبين لكم المسألة لم يحلا لإنكار على من أفتى أو عمل حتى يتبين خطؤه).

ويصدع بأصل في خطاب رابع فيقول: (لا يجوز إنكار مسألة لا يُعرف حكم الله فيها) ذلك بأن للشرع في كل مسألة حكمًا وعلى المجتهد طلبه.

وليست الحجج بكثرتها ولكن بقوتها، ولا هي بعدد من يقبلونها، ولكن بصحتها وقدر فهمهم لها وانتفاع الناس بها.

والشيخ يكتب في إحدى رسائله: (قال ابن القيم: واعلم أن الإجماع والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده وإن خالفنا أهل الأرض).

ومن ثم كانت صلابة الدعوة وإصرار الداعية على نهجه، ما دام على الحق.

والشيخ لا يتهاون مع الضالين ولا يتهادون مع الكافرين، بل يجادلهم بالفقه الصحيح والسنة الثابتة.

يقول في خطاب: (وأما مسألة التذكير فكلامك فيها من أعجب العجائب: أنت تقول: (بدعة حسنة) والنبي يقول: (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)، ولم يستثن شيئًا تشير علينا به، فنصدقك أنت وأباك ونكذب رسول الله؟

وموسوعة الشيخ الفقهية فياضة بالفقه يقول في خطاب: (فهذه ستة مواضيع في "الإقناع" في باب واحد. إن من فعلها قد كفر، وهي دينك ودين أبيك).

وقال أيضًا – صاحب الإقناع – ومن قال: إن لأحد طريقًا إلى الجنة غير متابعة محمد ﷺ، أو لا يجب عليه اتباعه، أو لغيره خروجًا عن أتباعه، أو قال: أنا محتاج إليه في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة إذ قال: إن من العلماء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر عن شريعة موسى – يكفر في هذا كله).

وفي خطاب له يرتفع عن فضول التفاصيل ومصطلحات المتكلمين إلى التذكير بصحابة الرسول فيذكر قول أبي الوفاء بن عقيل: (أنا أقطع أن أبا بكر وعمر ما عرفا الجوهر والعرض. فإن رأيت أن طريقة أبي علي الجبَائي (المعتزلي) خير لك من أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت).

وهو بهذا يرفع المنهج السلفي إلى مكانته بين طرائق أهل السنة حيث أبو بكر وعمر في جوار صاحبهما ﷺ في الذروة، وحيث تنخفض دونهما كل رتبة، سواء أكانت مرتبة الفرقة الجبائية أم من وراءها من فرق المعتزلة.

* * *

أما عن مشاركة الشيخ في شئون الإمرة فيمكن إجمالها في غلبة السلطان الديني على السلطان الزمني لصدق إيمان ولي الأمر، من العالم الكبير والأيمر، وعلمهما معًا، والصحة إيمان الجماعة التي ترد كل منحرف إلى القاعدة، فيحسب حسابها أولوا لأمر، علماء كانوا أم أمراء.

وللشيخ سلطان على صاحب السلطان طوال حياته، لما بينه وبين محمد بن سعود من بيعة كل منهما للآخر، وما بينه وبين ابنه عبد العزيز، لأنه معلمه ومعلم الأمة والدولة التي أنشأتها لهم دعوته. وهو فوق ذلك قد خصه بشرح فاتحة الكتاب، وهذا الوضع ظاهر في تقديم ابن غنام لتاريخه، وهو تلميذ الشيخ المكلف بوضع تاريخ هذه الملحمة.

وعندما تأخذ الأمير نشوة ا لنصر يذكره ابن عبد الوهاب بحاجته إلى ذكر الله والشكر لأنعمه، فيكتب إلى عبد العزيز بن محمد بن سعود بطل الملحمة السعودية الأولى إذ فتح الله عليه مدينة الرياض:

(أحب لك ما أحب لنفسي، وقد أراك الله في عدوك ما لم تؤمل؛ والذي أراه أن تكثر من قول الحسن البصري وكان إذا ابتدأ حديثه يقول:

اللهم لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وفرجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمعافاة، كبت عدونا وبسطت رزقنا، وأظهرت أمتنا، وأحسنت معافاتنا. ومن كل ما سألنا – ربي – أعطيتنا؛ فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت).

والشيخ هو الذي وضع لمحمد بن سعود سياسة الحرب في أمور معروفة منها:

١- التدريب العسكري المستمر على الحرب، وتحمل المشاق لإعداد العقول السليمة في الأجسام السليمة، لتقدر على نشر الدعوة والدفاع عنها.

٢- الانتفاع بالتكنولوجيا المعاصرة في الحرب والتدريب على استعمال البنادق، وكانت قد دخلت حديثًا في جزيرة العرب مع جيوش الأتراك.

٣- استعمال الحرب الاقتصادية لتحقيق الأغراض العسكرية والسياسية: كتأديب وقوافل التجارة التي تصدف عن طريقها العادي في أرض نجد؛ لتمنع تجارات الإقليم مع الخارج، وتقصر تجاراتها على بلدان العدو.

٤- الإفادة من تلاميذ الشيخ وأتباعه، ليكونوا عيونًا للدعوة يظهرون ما يضمر أعداؤها لها. وأعوانًا أشداء إذ تقارب جيوشها مدنهم، فلا يطول حصارها أو قتالها وتستسلم.

٥- وكان تركه السيادة القانونية في الإمرة لابن سعود آية الصدق في دعوته، بالبعد عن المظاهر، والزهد في الحكم، قدر ما كان وسيلة لتأليف قلوب الحكام.

٦- وكانت الأناة والرحمة نصيحة دائمة منه للأمير، ولقد طالما نهنه الأمراء عن القسوة وبخاصة عبد العزيز بن سعود، إذ نصحه ألا يتهور سيفه، أو تتجاوز الحدود مسالحه ورباطاته، فالإسلام حنيفية سمحة ورسوله رحمة مهداة.

وإنما انتقل التخريب إلى العراق أو كربلاء – خصوصًا – بعد موت الإمام، ومن جرائه قتل عبد العزيز بيد شيعي هاله هدم قبة الحسين رضي الله عنه.

وبالإغارة على العراق وجد الأمير السعودي نفسه وجهًا لوجه مع الإمبراطورية التركية؛ إذ كان الأتراك أصحاب السلطة الفعلية على العراق. ويومئذ بدأ الصدام مع الأتراك.

ورمى الخصوم الشيخ بإفك يهيج له العرب. قالوا: إنه أجاز سبي العرب. وهي شنعة يستنكرها الشيخ بصوت عال ويدلل على استنكاره بتاريخ حروبه. فيقول (لا نرى سبي العرب ولم نفعله ولا نرى قتل النساء والصبيان) في حين يجيز قتل ما نعى الزكاة وتاركي الصلاة كما صنع أبو بكر.

والشيخ بذلك يضرب لنا مثلاً على اجتهاده المطلق، فهو لا يرى سبي العرب في حين كان أحمد بن حنبل صاحب المذهب يراه، لأنه يعمل بالحديث إذا بلغه ولا يعمل برأي غيره مهما كان مصدره. يقول أحمد: (لا أذهب إلى قول عمر "ليس على عربي ملك" قد سبى النبي ﷺ العرب في غير حديث، وأبو بكر وعلى حين سبى بنى ناجية) ولم يثبت عند أحمد حديث معاذ أن النبي قال يوم حنين: (لو كان الاسترقاق جائزًا على العرب لكان اليوم. إنما هو أسرى).

والشافعي يقول في الأم: (أخبرنا سفيان (بن عيينة) عن الشعبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لا يسترق عربي) قال الربيع: قال الشافعي: (ولولا أننا نأثم بالتمني لتمنينا أن يكون هذا هكذا).

في سنة ١١٧٩- ١٧٦٦ مات محمد بن سعود [٦٠] وخلفه ابنه وبطل حروبه بعد إذ أبلغت بطولات الرجلين دعوة الشيخ أبعد حدود نجد وتخطتها إلى ما تلاها من الأقاليم. عندئذ بعث الشيخ إلى عبد العزيز يعتزل المشاركة في الغزوات والسياسات. وإن ظل يشير في الأمور.

وفي الأعوام العشرين الأخيرة من حياته انقطع لتعليم المسلمين وهو قوي البنية، رفيع القامة، له وقار وهيبة، وجمال منظر الداعية المظفر [٦١].

---

(٦٠) تخلد اسمه الآن الجامعة الإسلامية (جامعة الإمام محمد بن سعود) بالرياض بالمملكة العربية السعودية ودروسها قاصرة على العلوم الشرعية.

(٦١) تزوج الشيخ في حياته الطويلة بأكثر من امرأة: الأولى منهن في العيينة قبل الرحلة الأولى للحجاز، وتزوج في العراق، وممن بنى بهن بعد الجوهرة بنت الأمير عبد الله بن معمر.

ومن أبنائه ٦ ذكور و ٦ إناث.

أما البنون فهم: إبراهيم وهو فقيه استشهد على أيدي الأتراك عقب سقوط الدرعية سنة ١٢٣٣ – وإخوة إبراهيم هم: عبد العزيز – كان قاضي العيينة ثم حريملا – وحسين وعلي وحسن وعبد الله. وقد شارك عبد الله أخاه حسنًا في القضاء، وكان لعبد الله ولدان (سليمان وعبد الرحمن) قتل إبراهيم باشا أولهما وبعث الآخر صغيرًا إلى مصر مع أبيه، فيبقى في مصر أربعين عامًا حتى توفي سنة ١٢٧٤ – ١٨٥٨ بعد أن أحيا فيها

وطالت مجالس العلم وتعاقبت السنوات تحمي بشائر الفتح والنصر وانتشار الدعوة في الجنوب والشمال والشرق والغرب، وعاد إلى الشيخ الفتاء؛ ففي كل نصر ونجاح فكر أسباب للقوة والفتوة. ولكل أجل كتاب.

* * *

ففي صيف سنة ١٢٠٦ – ١٧٩٢ بلغ الشيخ الواحدة والتسعين من العمر، وأخلولق الأجل، وكان قد ثقل، فصرفته صوارف الهرم عن الحياة العامة، لكنه ظل يهدج إلى المسجد

المذهب الحنبلي. أما حسن فله أبناء علماء أشهرهم: عبد الرحمن بن حسن رئيس قضاة المسلمين في عهد تركي بن عبد الله.

ومن ذريته الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي السعودية في عهد الملوك عبد العزيز بن عبد الرحمن وسعود بن عبد العزيز وفيصل بن عبد العزيز.

وتولى حسين الإفتاء والتدريس مع أبيه.

وله أولاد منهم حسن وله ولد اسمه عبد الله كان رئيس قضاة نجد زمانًا ومن بناته أم الملك فيصل.

وأنجب ابنه عبد الرحمن في مصر – وله ذرية فيها. ولما مات منهم محمد بن عبد الرحمن حقي بن أحمد الأزجي (وكان صيدليًا٩ نعته صحيفة الأهرام الواسعة الانتشار في العالم العربي في عددها الصادر بتاريخ ١٩٣٨/١/٢٣.

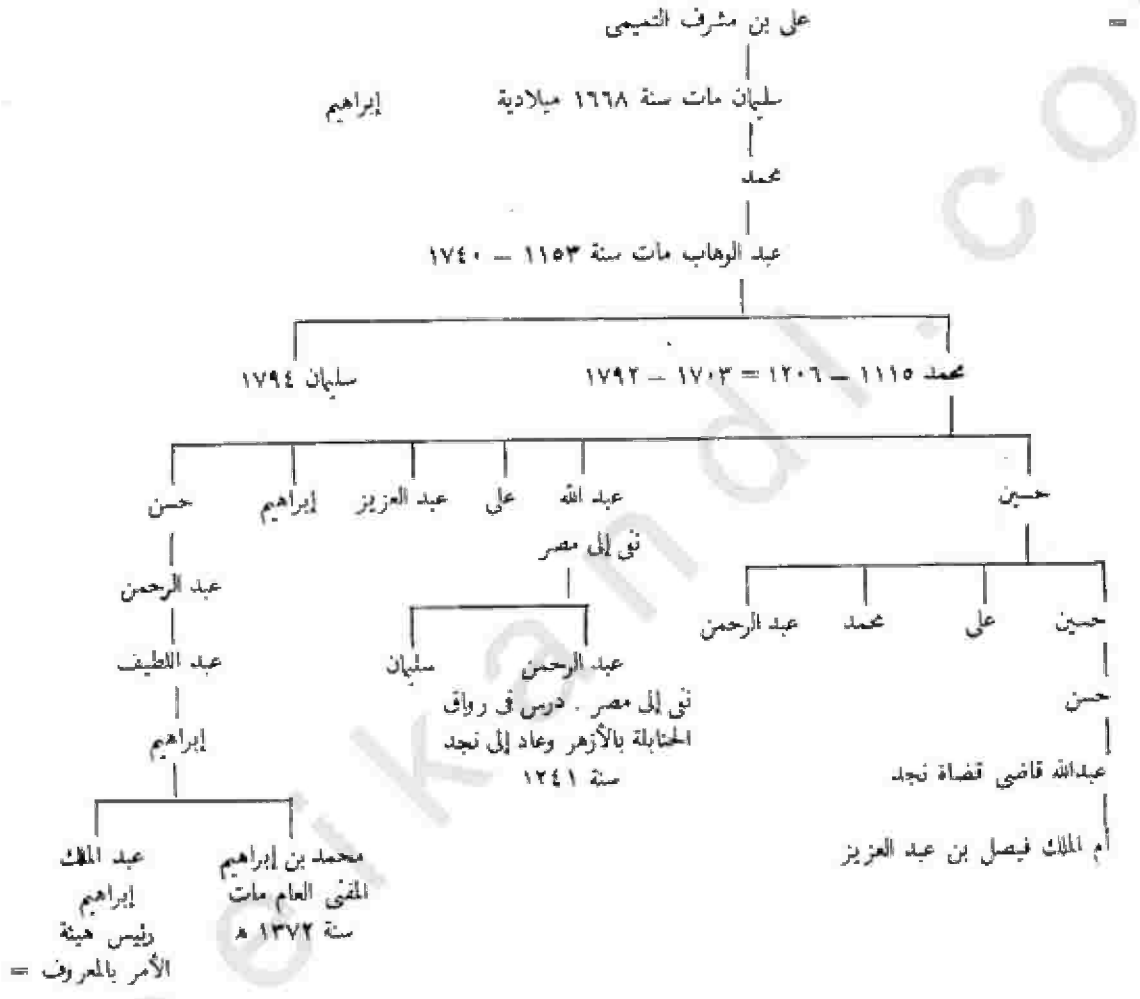
علي بن مشرف التميمي
سليمان مات سنة ١٦٦٨ ميلادية
إبراهيم
محمد
عبد الوهاب مات سنة ١١٥٣ — ١٧٤٠
سليمان ١٧٩٤
محمد ١١١٥ — ١٢٠٦ = ١٧٠٣ — ١٧٩٢
حسين
عبد الله
علي
عبد العزيز
إبراهيم
حسن
نفي إلى مصر
حسين
علي
محمد
عبد الرحمن
عبد الرحمن
سليمان
حسن
عبد اللطيف
نفي إلى مصر . درس في رواق
الحنابلة بالأزهر وعاد إلى نجد
سنة ١٢٤١
حسن
إبراهيم
عبدالله قاضي قضاة نجد
أم الملك فيصل بن عبد العزيز
محمد بن إبراهيم
المفتي العام مات
سنة ١٣٧٢ هـ
عبد الملك
إبراهيم
رئيس هيئة
الأمر بالمعروف =

متهاديًا بين اثنين، حتى انتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا [٦٢].

وسعت حياة الشيخ أجيالاً ثلاثة! هيأ أولها للدعوة أن تنفذ إلى القلوب، وهيأ الثاني لها أن تختلط بالدماء إذ تنقلها دماء جيل بعد جيل، وهيأ الثالث لها أن أصبحت "طريقة حياة" للجماعة، وبهذا حاربت الأجيال الثلاثة دون عقيدتها بضراوة وستحارب. وعندما يصبح الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر "طريقة حياة" لأمة تمسي خير أمة أخرجت للناس.

وحسب الدعوة وصاحبها جزاء أن تُصنَع هذه الأمة على عينه وبيده، وأن تبلغ شأوها في حياته.

والخلد منتهي همم كبار تضع صاحبها في مكانه من التاريخ قدر ما أحدث من أثر.

وليس من الممكن حصر آثار الشيخ أو تراثه في الأمة الإسلامية، لأنها تتعلق بالعقيدة وما تحدثه في الدنيا من صلاح، وفي الجماعات من تطور، وإن صاغ لنا أن نشير إلى بعض الأبعاد التي أدركتها:

أولها: أنه علّم المسلمين في عهده ومن بعده عقيدة التوحيد الصحيحة، ولم يكن في ديار المسلمين أيامئذ عالم أثبت منه قدمًا في الفقه أو إطلاق الاجتهاد ومجانية التقليد. فلما جاهد دون آرائه وقرن الجهاد بالاجتهاد أضاف إلى علمه للقرون اللاحقة أن الجهاد والاجتهاد معًا واجبان لإحداث التقدم واستمراره، وأن الإصلاح لا تحدثه أقوال المتقعدين، وإنما يحدثه رجال صلُب يجاهدون، وأن الجهاد فرض عين على من تعين له، وقد يكون جيلاً بتمامه.

---

(٦٢) تولى منصب الدعوى بعد موت الشيخ أبناؤه، وحفدته، فاختص آل الشيخ بالعلم والقضاء، وخلف الشيخ في منصب الدعوة ابنه حسين وكان كفيفًا، ولي قضاء الدرعية، فكانت له الإمامة والخطبة.

وخلف حسينا أخوه عبد الله وابنه علي بن حسين.

وهجر عليّ الدرعية إذ دمرتها مدافع الأتراك على ما ستشهده بعد. ولجأ إلى رأس الخيمة على ساحل الخليج العربي، وشهد ضرب الأسطول البريطاني لها.

وكان اهتمام الفرنسيين بدعوة ابن عبد الوهاب عدلاً لاهتمام الإنجليز بدولة آل سعود.

ففي أول القرن التاسع عشر للميلاد ظهر في باريس كتاب (تاريخ الوهابية من بدء ظهورها حتى سنة ١٨٠٩ وضعه Covrrancez عضو المجمع العلمي الذي أنشأه نابليون بمصر ثم صار عضو الأكاديمية الفرنسية)

ثانيها: أن قوام الأمة يعود إلى الاعتدال بظهور رجل واحد صادق العزم يعاونه حكام صدُق تستجيب الأنفس لما يدعونها إليه؛ إذ يأخذون أنفسهم ولا يخالفونهم إلى ما ينهونهم عنه: إذا حاربوا كانوا أقرب الجيش إلى العدو، وإذا سالموا كانت للناس في تقواهم الأسوة الحسنة.

ثالثها: أن الجماعة الصالحة والدولة الصالحة صنوان، وأن الدعوة الصادقة تقيمهما معًا فالجماعة الساهرة على الفضائل لا تستبقي إلا دولة تحميها.

رابعها: أن المنهج السلفي قد أثبت في حياة الشيخ وبعد مماته، وبدليل عمل حي من واقع ا لجماعة التي نهجته- اقتداره على إحداث الأطوار الضخمة في تاريخ الأمة من طور الجهاد للاستقلال إلى طور الكفاح لتثبيت الدولة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر إلى طور استعمال التكنولوجيا المعاصرة في القرن الرابع عشر كما سنرى بعد.

وهذا الإنجاز الحضاري آية على أبدية الحنيفية السمحة وتمكينها العقل البشري أن يبلغ شأوه.